CC BY

College of Basic Education Research Journal

www.berj.mosuljournals.com

A Cultural Manifestations in Andalusian Women's Poetry

Abdul-Hafeed Khalf Salih

Article Information

Article history:
Received: October 3.2023
Reviewer: December 2.2023
Accepted: December 5.2023

Keywords:

Correspondence:

Abstract

Women have played a prominent role in various fields of life throughout the ages, particularly in intellectual and literary domains. Their activity has matched that of men across all areas. Consequently, Andalusian women made a significant contribution to the literary life in Andalusia, exploring all themes of poetry. We find their poems addressing wisdom, death, asceticism, nature, calligraphy, advice, and other subjects. This reflects the awareness and sophistication that Andalusian women achieved, granting them a distinguished status in their society. Contributing to this was the diversity of the Andalusian community and the freedom that women enjoyed in Andalusia in particular. The result of all this was a vibrant cultural life rich in artistic contributions across all levels. Notably, the nature of women's poetry in Andalusia was predominantly conservative, especially those poems that were reminiscent of the early Arab periods in Andalusia, during the conquest and the subsequent Arab presence in those non-Arab regions. However, this situation did not last long, as nations soon blended with one another and adapted to each other, thus forming the Andalusian identity, which became known for its distinctive characteristics.

ISSN: 1992 – 7452

المظاهر الثّقافيّــة في الشّعر النّسويّ الأندلسيّ

عبد الحافظ خلف صالح نزّال

الملخّص:

لقد كان للمرأة دورٌ بارزٌ في ميادين الحياة المختلفة وعلى مرّ العصور، و لاسيّما في الميادين الفكريّة والأدبية، فوجدنا نشاطها نشاط الرجل نفسه في الميادين جميعها، و من هنا فقد أسهمت المرأة الأندلسيّة إسهامًا واضحًا في الحياة الأدبيّة في الأندلس، فطرقت أغراض الشّعر كلّها، إذ وجدنا لها قصائدَ في الحكمة و في الموت و في الزهد و في الطبيعة و في الخطّ و في النّصح وغيرها من الأغراض، و هذا يعكس الوعي و الرّقي اللذين وصلتهما المرأة الأندلسيّة ، مما أعطاها مكانةً مرموقة في مجتمعها، و ما ساعد في ذلك تنوّع أجناس المجتمع الأندلسي، والحريّة التي حظيت بها المرأة في الأندلس على وجه الخصوص، و كان حصيلة كل ذلك حياة ثقافيّة زاخرة بالعطاء الفنّي في الأصعدة جميعها، و مما يلحظ على طبيعة شعر المرأة في الأندلس هو أنّه جاء شعرًا محافظًا في الغالب، خاصة تلك الأشعار التي كانت قريبة من عهود العرب الأولى في الأندلس، مرحلة الفتح و ما تلاها من الوجود العربيّ في تلك الرّبوع غير العربيّة، لكنّ هذا الحال لم يدم طويلًا، إذ سرعان ما امتزجت الأمم مع بعضها و تطبّعوا مع بعضهم، فتشكّلت الشخصيّة الأندلسيّة بذلك، و صارت معروفة بتفاصيلها المعروفة.

كلمات مفتاحيّة: الحبّ الإلهي، الخط، القصص، المرأة، الحريّة

مدخل:

ـ مظاهر الحياة الاجتماعيّة والثّقافيّة في الأندلس:

كان المجتمع الأندلسي قبل الفتح مؤلّفًا من عناصر مختلفة، تضمّ الأصليين من الإيبيريين الّذين يرجعون إلى جنسٍ من البربر، الّذين استوطنوا شبه الجّزيرة منذ أقدم العصور، قادمين إليها من شمال إفريقيا، وأُطلق عليهم اسم الموريين (وهي لفظة إغريقيّة)، واليونانييّن والقرطاجنيّين والرّومان والوندال والقوط، تبعًا لموجات الهجرة التي تعرّضت لها الجزيرة [١].

فالمجتمع الأندلسي قبل الفتح الإسلامي كان عبارة عن خليط من الأجناس البشريّة التي تمازجت فيما بينها وانصهرت ثقافاتها، " أمّا الحياة الثّقافية فقد كانت فيها حصيلة طيّبة من العلوم والفنون، شارك فيها الفينقيون واليونان والرّومان والقرطاجنيّون، مما جعلها بذرة نشطة في التّربة الإسبانيّة مفسّرةً الازدهار

١() ينظر: الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس، إبراهيم توفيق، دار غيداء للطباعة والنشر، عمّان، الأردن، ط١،٢٠١٢: ٢٣ ـ ٢٤.

الفكري السّريع ما بعد الفتح الإسلامي في امتزاجٍ بين الحضارات الأوربيّة القديمة والحضارة الإسلاميّة المشرقيّة[٢].

وبعد الفتح دخل العنصر العربيّ بما يحمله من ثقافةٍ جديدةٍ إضافةً إلى الدّين الإسلامي، ما أسهم في جعل المجتمع الأندلسي أكثر خصوبةً ومهدًا للتنوّع الفكري و الثّقافي، ومحضنًا لجميع الأعراق و المِلَل والدّيانات.

إنّ هذا التّنوّع العِرقي والدّيني قد صحبه عوامل أثّرت على طبيعة المجتمع الأندلسي، منها ما تعلّق بالتقاليد والأعراف والعادات الاجتماعية في الأندلس، يمكن إجمالها (طبقات التّنوّع) بما يأتي:

ـ الطّبقة الرّومانيّة الأرستقراطيّة التي كانت صاحبة المال و الجاه.

ـ الطّبقة العربيّة الأرستقراطيّة التي سيطرت على معظم الأراضي الخصبة، وبنوا لأنفسهم في المدن والضّواحي دُورًا وقصورًا.

ـ طبيعة شبه الجزيرة من خصوبة الأراضي وكثرة المياه و الأنهار واعتدال الهواء، وهي عوامل صقلت المجتمع الأندلسي.

ـ تعدّد الأجناس والأصول العِرقيّة، و هذا يولّد نوعًا من التّمازج الاجتماعي المبنيّ على المدنيّة والحضريّة.

ـ امتزاج الحضارات الأوربيّة القديمة مع الحضارة الإسلاميّة المشجّعة على طلب العلم والمعرفة.

ـ كثرة الجواري وما يرافقها من دورٍ للقيان ومدارس لتعليم الرّقص والغناء وآداب المجالسة وشيء من العلوم المختلفة.

إنّ هذا النّغم الثّقافي والتّنوّع العِرقي والفكري في بلاد الأندلس أفرز عادات وتقاليد متنوّعة ومتباينة بين مختلف أقاليم البلاد، ما ساعد في جعلها ملتقى الحضارات ومفترق طرق مختلف الثّقافات[٣]، وهو ما انعكس إيجابًا على الفرد الأندلسيّ الذي أضحى يعيش في وسط زاخر شجّعه على الإبداع، بالإضافة إلى البيئة الأندلسيّة السّاحرة.

و لأنّ الثّقافة هي محصّلة اجتماعيّة و نشاط اجتماعي محض، و إفراز طبيعي لفعّاليّات الجماعات على الأصعدة جميعها(دينيّة، علميّة، فكريّة، اجتماعيّة)، طالما تصب في بناء محصّلة فكريّة/ ثقافيّة لدى

٢() ينظر: المظاهر الثقافية في الشعر الأندلسي حقبة الأندلس الصّغرى، إيفان فهمي حميد مجيد، دار الابتكار للنشر و التوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠٢٠: ٢٩.

٣() ينظر: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٧٩.: ١٩.

(٢) ينظر: الأدب النّسوي بين الرفض و التأييد و بداياته في الوطن العربي، سوسن أبرادشة، مجلة إحالات، العدد ٣، ٢٠١٩: ٢٢٧-٢٢٨.

أفراد المجتمع، لذا تحتّم علينا هذا التقديم (الاجتماعي) لأحوال المجتمع الأندلسي بتنوّع أعراقه و اختلاف أطيافه و تعدّد روافد أفكاره.

ـ الشّعر النّسويّ الأندلسيّ ونشأته:

ـ في مفهوم الأدب النّسوي: بداية يجب علينا أن نحدّد ما نعنيه بـ(الأدب النّسوي)، الذي اختلفت فيه الدّراسات كثيرًا حول تحديد مفهوم ثابت لهذه المصطلح، الذي أيّدته مجموعة و رفضته مجموعة أخرى، فهو عند البعض هو الأدب الذي تكتبه المرأة، و عند البعض الآخر هو كل الكتابات التي تحكي عن المرأة و ما يتعلّق بها، و هذان التصنيفان هما الأقربان للواقع وللمنطق، في ظل تعدّد الآراء و تشعّبها، التي جعلت منه مصطلحًا متأرجحًا، فالأدب النّسوي إمّا أن يكون متعلقًا بالجنوسة gender، أو نوع الجنس SeX، فأمّا أن نقول عن كل ما تكتبه المرأة أدبًا نسويًّا، أو إنّه ما تعلّقت مواضيعه و مضامينه بما يخص المرأة فقط دون غيرها من بقيّة الصّنوف، كأدب الطفل، و أدب المهجر و غيرها[٢]، و نحن في بحثنا سنعتمد على التّصنيف القائل بأنّ كل ما تكتبه المرأة هو أدب نسوي، و نعني به ذلك الأدب الذي تنتجه المرأة، ولاتّصاله بها أصبح يُسمّى أدبًا نُسويًّا، لكن مع هذا يبقى مصطلح الأدب النّسوي موضع شكٍّ ولبس، لذلك نجده يتأرجح بين مؤيّد ومعارض.

لم يُحدِث شعراء الأندلس مذهبًا فنيًّا جديدًا في الشّعر، فقد حافظوا على الصّورة الشّعريّة التّقليدية، وحاكوا القصيدة المشرقيّة في كثير من الأحيان، على الرّغم من كونهم قد تغنّوا كثيرًا بجمال طبيعتهم، وساعدت حياة التّرف والبذخ التي عرفوها على ظهور نوع جديد من الشّعر عُرِف بـ(الموشّح)، والذي كان موجّهًا أساسًا للغناء والطّرب، ونقصد بالتّجديد هنا الخاص بالناحية الشكليّة للقصيدة، إذ إنّهم لم يتخلّصوا من أساليب القُدامى و أوزانهم، " والحق أنّ شخصيّة الأندلس في الشّعر العربي لم تكنْ قويّة، ومع ذلك فإنّها استطاعت أن تحدث شيئًا جديدًا في الشّعر، وهو الموشّحات والأزجال التي تعبّر عن موجة واسعة من الغناء والموسيقى، و قد نشأت هذه الموجة مع زرياب و غيره، ومغنيّاته أمثال علم وقلم و قمر والعجفاء"[٤].

إنّ ظهور الموشّح رافقه ظهور المُغنيّات اللّواتي كُنَّ يؤدّين الموشّحات والأزجال، ولو إنّها لم تكن من نظمهم الخاص إلّا إنّها كانت بدايةً لدخول المرأة عالم الشّعر، و ولوجه من أوسع أبوابه، ذلك أنّ حياة الأندلسي في تلك الفترة كانت قائمة على عنصرين أساسيين هما: الخمرة والمرأة في مجالس الطّرب واللهو، ومن هنا بدأت إرهاصات قيام أدب نسويّ في بيئة أندلسيّة فتحت الباب على مصراعيه للمرأة و للإبداع،

٤() الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط ٩: ٤٥١.

فظهرت على الساحة الأدبيّة شواعر كثيرات، أمثال ولّادة بنت المستكفي وأم الحسن بنت القاضي أبي جعفر و حمدة بنت زياد و أختها، وغيرهنّ كثيرات.

١ـ المرأة الأندلسيّة وشعرها عبر العصور:

لقد حظيت المرأة الأندلسيّة بقسطٍ كبيرٍ من الحريّة، و هذا ما أقرّه عددٌ من المستشرقين الّذين أكّدوا على " إنّ وضع المرأة في الأندلس كان أكثر تحرّرًا عمّا كان عليه في بقعة الشّعوب الإسلاميّة الأخرى، فأسهمت في كلّ ألوان الثّقافة المعروفة على إيّامها، وليس بقليلٍ عدد أولئك اللائي بلغنَ شُهرةً واسعةً لدورهنّ في مجال العلم أو مزاحمتهنّ الرّجال في قرض الشّعر، وفي ظل الحضارة الرّاقية بلغنَ في إسبانيا احترامًا لم تعرفه المرأة أبدًا في المشرق الإسلامي"[٥]، ولقد أرجع الدّارسون على أنّ هذه الحرية للمرأة الأندلسيّة تعود إلى سبب أساسيّ وهو اختلاطها بالبربر وبغيرهم من الأعراق، إذ كانت للمرأة في تلك الأعراق مكانة تختلف عمّا هي عليه في المجتمعات العربيّة المشرقيّة.

أ ـ في العصر الأمويّ (١٣٨ هـ ـ ٤٢٢ هـ / ٧٥٥ م ـ ١٠٣٠م):

عرفت هذه الفترة عددًا من الشّاعرات، أمثال حسانة التميمة، قمر، عائشة، أنس القلوب، العجفاء، حفصة بنت حمدون وغيرهنّ، وهنّ شواعر اشتهرن بالحسَب و الجلالة إذ حافظنَ على المعاني العربيّة[٦]، فهذه عائشة بنت أحمد القرطبيّة لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علمًا وفهمًا و أدبًا و شعرًا و فصاحةً، قد دخلت ذات يوم على المظفّر بن المنصور بن أبي عامر وبين يديه ولد فارتجلت تقول[٧]:

أراكَ اللهُ فـيهِ مـا تُـريـدُ ... ولا بَرِحـتَ مَعَـاليـهِ تَزِيـدُ
فَقد دَلّـتْ مَخايـلُـهُ علـى مـا ... تُـؤمّلَه و طَـالِـعُهُ السّعِـيدُ
تَشوّقـتِ الجيـادُ لَـهُ وَهَزّ الـ ... حُسامُ هوى و أَشْرَقـتِ البُنـودُ
وليدُكم لِـدَى رأيٍ كَـشَيْـخٍ ... وشَـيْخُكـم لِـدَى حَـربٍ وَليدُ

وكذلك الشّاعرة العجفاء التي تُعدّ " أوّل شاعرةٍ بأرض الأندلس كانت من الجواري الوافدات من المشّرق ولا نعرفها باسمها، فذلك شيء غاب عن مؤرّخي الأدب الأندلسي، و إنّما بصفتها التي عُرفتْ بها و ذاع

٥() الشعر النسوي الأندلسي، سعيد بوفلاقة، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية ـ الجزائر، ط١ ، ١٩٩٥: ٢٦ـ ٢٧.

٦() ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١: ٦٤/٦.

٧() المصدر نفسه: ٦٤/٦.

صيتُها، فأصبحت تُعرَف بالجارية العجفاء، و لقد كانت بالفعل عجفاء هزيلة ضعيفة نحيلة"[٨]، يقول الأرقمي لمّا دعاه صديقه أبو السّائب لِسماعها في بيت سيّدها: بأبي أنت ما هذا؟ فقال له: اسكتْ، ثمّ تناولت العود فغنّت[٩]:

بَرِحَ الخَفاءُ فَأَيُّـــمَا بِكَ تَكــتُمُ وَلَسَوْفَ يَظْهَرُ ما تَسِــرُّ فَيَعلَـمُ
ممّا تَضمَّنَ مِنْ عَزِيـزٍ قَلْبُــهُ يا قَلْــبُ إنّـكَ بالحِـسانِ لَمُغْرَمُ
يَا ليتَ أنّكَ يَا حُسَـــامُ بِأرضِنَا تُلقِــي المَراسيَ طَائِـعاً وتُخِيّـمُ
فَتَذَوَّقْ لَــذّةَ عَيْـشِنَا وَ نَعِيمَهُ وَنَكُــوْنُ إخوانَاً فَمَـــاذا تَنـــقُمُ

إنّ الحديث عن شاعرات هذه الحقبة يطول، ولكن مع ذلك يمكن أن نقول أنّ هناك التزامًا عند بعض الشّاعرات بالمحافظة في القول معنىً وصياغةً، ولكن هناك من الشّعر ما تراوح بين الجدّ والمحافظة و بين الانطلاق والتّحرّر[١٠]، مثل عائشة القرطبيّة، مع ذلك يمكن أن نعدّها مرحلةً وسطى لبداية تشكّل معالم حركة الشّعر النّسويّ، أخذت تتجذّر أكثر في المجتمع بمختلف طبقاته وشرائحه.

ب ــ في عصر ملوك الطّوائف: (٤٢٢هـ ـ ٤٩٣هـ/ ١٠٣٠م ـ ١٠٩٩م):

في هذه الفترة ازداد عدد الشاعرات ليصل إلى أعلى نسبة له في تاريخ الأندلس عامّةً، وساعد على ذلك تعدّد العواصم و الملوك، إذ حرص كل ملك على أن يجمع حوله أكبر عدد من الأدباء والشّعراء والشاعرات.

وقد واكبت نهضة الشّعر في القرن الخامس نهضةٌ أخرى تمثّلت بـ" وفرة عددهنّ واختلاف بلادهنّ ونفاسة إنشائهنّ وتجديد فنونهنّ"[١١]، كما برزت معالم التّجديد لدى الشّاعرات الأندلسيّات، أو بالأحرى السّمات التي تميّز بها الشّعر النّسويّ الأندلسيّ، ويبدو ذلك خاصّةً من خلال غَرَضَي الغزل والهجاء، الذي بدت فيه الشّاعرة الأندلسيّة أكثر جرأةً من المرأة المشرقيّة، ويمكن أن نتمثّل لها بشعر نزهون القلاعيّة الشّاعرة الماجنة، إذ تصف لنا ليلة قضّتها مع الحبيب بعيدًا عن أعين الرّقباء، تقول[١٢]:

لِلـــهِ دَرُّ الّلــيالي مــا أُحَيْــسِنِــهَا وَمَا أُحَيْسِنَ مِنـــــهَا لَيْلَـــةَ الأحَدِ

٨() الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: ١١٩.

٩() ينظر: نفح الطيب: ٨٧/٦.

١٠() ينظر: إسهام المرأة في حضارة المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع للهجرة، نبيلة عبد الشكور، جامعة الجزائر، ط٢، ٢٠٠٨: ٦١/١.

١١() الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: ١٤١.

١٢() المصدر نفسه: ١٥٩.

لَوْ كُنْتَ حَاضِـــرِنـــا فيها وَقَد غَفَلَت عَينُ الرّقِيْـــبِ فَلَم تَنْظــرْ إلى أَحَدِ

فهذا النّوع من الأشعار لم نكن قد عهدناه في الأدب العربيّ النّسويّ، ولكن مع هذا لا نستغرب إذا عرفنا أنّ هذا العصر عُرِفَ بشيوع التّرف واللّهو والطّرب في المجتمع الأندلسيّ، بصورة لم يسبق لها مثيل، وتمتّع المرأة بحريّة لم يُسبقْ أن تمتّعت بها.

لكن مع ذلك هناك شاعرات عُرِفنَ في هذه الفترة بالعفاف، وعالجنّ موضوعاتهنّ في حدود أنوثتهنّ، أمثال حفصة بنت حمدون والغسّانة البجانية، ويمكن أن نتمثّل لهذا الاتّجاه بهذه الأبيات[١٣]:

أتجرّعُ إن قَالوُا سَتــرحَلُ أضـغانُ وَكيفَ تُطِيقُ الصّبرَ وَيْحَــكَ إن بَانُــوا
وَما هو إلّا المَوْتُ عِنـدَ حِيلِهِــم وإلّا فَــصـبْرٌ مِثــلُ صَــبْرٍ وَأحـــزانُ
لَيالي سَــعْدٍ لا يخافُ على الهَوَى عِتابٌ وَلا يَخشى على الوصـــلِ هِجرانُ

بالإضافة إلى غَرَضي الغزل والهجاء فقد طُرِقَت أغراضٌ أخرى مثل المديح ووصف الطّبيعة والحكمة والشّكوى وغيرها.

و في الأخير يمكن أن نقول أنّ مع شعر هذه الفترة بدأت مظاهر التّجديد والتّميّز تبدو جليًّا خاصّةً في غرضي الغزل و الهجاء.

جـ ـ في العصر الموحّدي والمرابطي:

لم تقف مسيرة الشعر بالشّاعرات، بل حفلت هذه الفترة بعدد من الشّاعرات لكنّها قليلة إذا ما قُورِنت مع الفترة السّابقة، فنجد مثلًا حفصة بنت الحاج الرّكونيّة وأسماء العامريّة و أمّ الهناء بنت عبد الحق وغيرهن.

لقد كانتْ حفصة بنت الحاج في القرن السّادس في غرناطة مثل ولّادة في قرطبة على زمانها أيضًا، بل إنّ حفصة أشعر، وهي في غزلها أشعر في الهجوم على معاني العشق والغيرة، فقد كتبت تُهنّيء أبا جعفر لمّا تولّى الوزارة قائلةً[١٤]:

رَأَستَ فَمــا زالَ العِداةُ بِظُلمِهِم وعلمُهمُ النّامــي يَقُولــونَ ما رَأَس
وهَل مُنكَرٌ أنْ سادَ أَهل زَمانِهِ جُمــوحٌ إلى العُليا حرونٌ عن الدّنس

١٣() الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه: ١٤٥.

١٤() نفح الطيب: ١١٣/٦.

كما اشتهرت في هذه الفترة قسمونة بنت إسماعيل اليهوديّ، إذ امتازت بنظم الموشّحات، تقول في مقطوعةٍ لها[١٥]:

يا ظبيةً ترعَـــى بِروضٍ دائـــــمٍ إنّي حَكيتُكَ في التّوحّـشِ والحَوَرِ
أمسى كِلانا مُفـرَداً عـــن صاحبٍ فَلْنَصطَبِـرْ أبَدَاً على حُكمِ القَـدَرِ

وقيل أنّها نظمّت هذين البيتين عندما نظرت إلى ظبيةٍ كانت لديها فوجدتها تبشهها في الحَوَر.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الشّعر النّسويّ الأندلسي قد جاء شعرًا مُحافظًا، و قد ذكر ابن سعيد : "يقال لنساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة (العربيات) لمحافظتهنّ على المعاني العربيّة"[١٦]، حتى إنّ شاعرات أندلسيّات كانت تطلق عليهنّ ألقاب مشرقيّة مثل حمدونة بنت زياد بأنّها خنساء المغرب، ويمكن القول أنّ الشّعر يتميّز بالأصالة كلّما كان قريبًا إلى عهود العرب الأولى في الأندلس، خاصّةً مرحلة الفتح وما تلاها من الوجود العربي في تلك الرّبوع غير العربيّة، لكنّ هذا الحال لم يدمْ مع دوام بقاء العرب في الأندلس واستقرارهم فيها، ثم ما نجم عن ذلك من امتزاج بأهلها وتطبّعهم بمناحي الحياة وبمؤثّرات البيئة فيها، وهكذا تكوّنت ملامح الشخصيّة الأندلسيّة.

٢ـ المظاهر الدّينيّة والاجتماعيّة:

أـ الحبّ الإلهي:

إنّ الثّقافة تُبنى وفق الحاجة، وحاجة المرء الأساس هو التّقرّب إلى خالقه، وحبّه له، فكانت وسيلة المؤمن للتقرّب من الله هو الحبّ، الذي هو " موافقة الحبيب، في المشهد المُغيّب"[١٧]، فالتّراث الإنساني مرتبط بمكانة القدير في قلبه، التي تترجم إلى أقوالٍ و أفعال، التي تعبّر عن السّلوك ذي الإرادة القويّة والإيمان الخالص بالعقيدة والخالق، فالمتقرّب إلى الله يتكلّم عن الحُبّ والعشق، فيخاف ويحزن ويبكي، وهي ترجمة للجوارح التي تلجأ لذلك الفعل الرّوحي الذي يقدّم الصّفو والسّمو و الرّقي.

إنّ شعر الحبّ النّسوي حينما ظهر كانت عليه تحفّظات، فهو وصف للمحبوب وذكر مشاعر الشّوق والرّغبة في اللقاء والألم من الفراق وغيرها من المعاني، لذا فلم تكثر فيه المرأة بشكل عام.

١٥() المصدر نفسه: ١١٧/٦.

١٦() ملامح الشعر الأندلسي، عمر الدقاق، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، كلية الآداب، ط٣، ١٩٧٨ :٤٣.

١٧() مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين، أبو عبدالله محمد بن أيوب بن قيم الجوزية، تحقيق: رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ٢٠٠١: ١١/٣.

وللمرأة الأندلسيّة أشعار حبّ محتشمة عفيفة، ليس فيه أوصاف المحبوب أو شعور المحب، ولكنّه ملتفّ بغلالة رقيقة من الوِقار و الحياء، تقول أمّ العلاء الحجازيّة[١٨]:

كُلّ ما يَصدرُ عنكمُ حُسنُ وبِعلياكُمِ يُحلّى الزّمَنُ
تَعكُفُ العَيْنُ عَلى مَنظَرِكُمُ وَبِذكراكُمُ تَلُذّ الأُذُنُ
مَنْ يَعِشْ دُونَكُمُ فِي عُمرِهِ فهو في نيلِ الأَماني يُغبَنُ

فالشّاعرة هنا تنسب صفة الكمال للمحبوب، وتنزّهه عمّا دون ذلك، فبوجوده يحلو الزّمان، فهو مصدر الحب والسّعد، والمُلاحظ على النّص الألفاظ الغزليّة، وكأنّه يتكلم مع المحبوب، ولكنّه يبدو في الحقيقة تدرّجًا ليصل إلى مرتبة الحب الإلهي، فالمتفكّر في مفردات الأبيات يجد التذلّل والخضوع اللّذين لا يكونان إلا للخالق، فالنعيم بين ثنايا الحب، والنّسمة العطرة في روائحه الرّحمانيّة (حسنُ، يحلى الزمن، تعكف العين، تلذ الأذن)، فالإنسان الذي يصل هذه المرتبة هو الوحيد الذي يمكنه الوصول إلى القمّة الأخلاقيّة والاطمئنان الرّوحي.

فالحب من المظاهر البارزة في أشعار التغزّل، فألفاظه تومئ إلى مقصدها، ومن ذلك قول أنس القلوب[١٩]:

نظَرِي قد جنى عليّ ذنوباً كيف ممّا جَنَتهُ عيني اعتذاري

وتقول نزهون في موشّحتها تصف طرف المحبوب [٢٠]:

بأبي من هدَّ مِن جِسمي القِوى طَرفُهُ الأَحوَرُ

إنّ الكمال غير المتناهي، مصداقه الأوحد هو الله سبحانه، فالتّأمّل في فطرة الإنسان إنّه إذا عرف الله تعالى فإنّه سوف يحبّه بالضّرورة ، وذلك لأنّ حبّه لله تعالى انعكاس وترجمة فعليّة لحب كماله الشّخصي والذّاتي، وهو طالب له ما دام فاقدًا له، فهذا الحب رحلة لمعرف خلق الله عن طريق الحبّ والعشق، فأوحي الشّعر في الحب في تقربّهم من الخالق بمختف طرق الوصول، متكئًا على وسائل لتحقيق ذلك، فهذه الشّاعرة حفصة بنت حمدون الحجازيّة توظف الخمرة رمزًا للوصل إلى المحبوب[٢١]:

رأى ابن جميلٍ أن يرى الدّهرَ مجملاً فَكُلُّ الورى قَد عمّهم سيبُ نِعمَتِه
لَهُ خَلقٌ كالخَمْرِ بَعدَ امتِزاجِهَا وحُسْنٌ فَما أحلاهُ مِن حينَ خَلَقْتَه

١٨() المغرب في حلى المغرب، علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٣: ٢/ ٣٨.

١٩() نفح الطيب: ١/ ٦١٧.

٢٠() ديوان الموشحات الأندلسية، تحقيق: السيد غازي، منشاة معارف الإسكندرية، مصر، د.ط، ١٩٧٩: ١/٥٥.

٢١() نفح الطيب: ٤ /٢٨٥.

بوجهٍ كَمِثْـلِ الشّمــسِ يدعــو يُبــشّره عُيُونـــاً وَيَعِيشـــهَا بإفــراطٍ هيبته

فالشّاعرة هنا تصف المحبوب غايةً في الوصف، فكأنّنا أمام لوحة فنّان، وسّعت دائرة التّوظيف(الدّهر، الورى، الخمر، الشّمس)، لتبرز صورتها بألوانها التي تريد(الوصف)، وفي البيت الثاني نجدها قد استمدّت صورتها التشبيهيّة من الشّعر التّقليدي، والدّليل على ذلك أنّها وظّفت (الخمرة)، وهو ما معروف عن العرب لطالما وظّفوا الخمرة في بناء صورهم الشّعريّة وبلورة معانيهم، فقد شبّهت معشوقها بالخمر حين يمتزج، فهذا تشبيه مرسل ذكرت فيه جميع أركان التّشبيه، كما شبّهت وجه معشوقها بالشّمس في نورها وبشرها وإشراقتها، وكأنّ وجه حبيبها مشرق ومنير, وإطلالته كإطلالة الشّمس.

إنّ معاني الحب التي دارت كثيرًا في شعر النّساء، فهي المعاني نفسها التي استخدمها الرّجل الشّاعر، ومنها الشّكوى والبعد، والتّقلّب على نار الاشتياق، فقد كتبت ولّادة إلى ابن زيدون[٢٢]:

ألا هَـل لَنَا مِن بَــعدِ هــذا التّــفرُّقِ سبــيلٌ فَيَشــكُو كُــلُّ صُبٍّ بِما لَقِي

و قد كُنتُ أوقاتَ التّزَاوُرِ فــي الشّــتا أبيتُ على جَمْرٍ مِن الشّــوقِ مُحرِقِ

وكما يبدو أنّ أشعار الحبّ تأخذ جانبين، الأوّل وهو السبيل للوصول إلى الحبّ الإلهي، إذ الرّوح تسمو وتتذوق فترتقي، والجسد لكي تنسجم مع ماديّات الحياة من أجل العيش الرّغيد السّوي السّليم، و الثّاني هو العاطفة لكي نتلمّس جمال الكون وندركه، والخيال الذي هو القوّة الحيويّة الخلّاقة التي تحقّق الوحدة العضويّة للنفس والحياة، والواقعيّة لنحوّل أيّ تأمّلٍ إلى حقيقة، لتتداعى معاني الحياة الحرّة التي وهبها الله تعالى لكلّ إنسانٍ بمشيئته.

ب ـ المــوت:

لقد واجه الأدباء قدر الموت بأشعارهم ومنذ القدم، إذ لم يتوقّف ذلك على ديانة معيّنة أوعرق معيّن، فتناولوه بأشعارهم ساخطين حيناً ومستسلمين متضرعين حيناً آخر، تبعاً لمرجعياتهم الدينيّة والفكريّة.

وأغلب الشعراء الأندلسيين متصلون بشعراء المشرق روحًا وثقافةً وديناً، ومن الطبيعي أن تكون أشعارهم في الموت تتناول المواساة والتصبّر والاستسلام للقضاء والقدر.

وقد كان للشواعر الكبار مراثٍ كبيرة، رسميّة وغير رسميّة، ونجد منهنّ مَن اشتهرت بهذا الغرض، وهي الشّاعرة المعروفة الخنساء، التي برعت في هذا اللون، فَرَثت أخويها صخرًا ومعاويةً بأجمل المعاني و أحسن الصّور، فقالت ترثي صخرًا[٢٣]:

٢٢() المصدر نفسه: ٤/ ٢٠٦.

٢٣() العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده، أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ٢/ ١٤٧.

ضَاقَتْ بي الأَرضُ وانقضّــتْ مَخارِمُها حتّى تَخاشَــعتْ الأَعلامُ والبِــيـدُ
وَقائــلِين تُــــــــعزّي عن تــــذكّرِهِ فالصّبرُ! ليسَ لأمرِ اللــهِ مَــردُودُ
يا صخرُ قد كُنــتَ بَــدراً يُستَضاءُ بِهِ فَقّد ثَوى يومَ مُتَّ المــجدُ والجُودُ
فاليومَ أمسيتَ لا يرجــــــوكَ ذو أملٍ لمّا هلكتَ وَحَوضُ المــوتِ مَـردودُ

لكنّنا حينما نتطلع إلى الشعر النّسويّ الأندلسيّ لا نجد فيه مراثيَ عبّرت بها المرأة عن معاني الثّكل والفراق، مما كان يمكن أن تُبدِع فيه، ولم نعثر في هذا المعنى سوى على أبياتٍ قليلةٍ للشاعرة المشهورة حفصة الركونيّة في رثاء الرجل الذي أحبّته وقُتِلَ بسببها[٢٤]:

وَلو لَم تكُنْ نجماً لما كان ناظِـري وقد غِبتَ عنهُ مُظلِماً بعد نورِهِ
سَلامٌ على تلكَ المحاسِنِ من شجٍّ تَناءتْ بِنُعماهُ وطِيــبِ سُرورِهِ

كما إنّنا نجد بعض المصادر تذكر أنّ حفصة نظّمت ثلاثة أبيات أخرى، في رثاء أبي جعفر، لأنّها لبست الحداد وجهرت بالحزن، فتوعّدت بالقتل[٢٥]:

هدّدوني مــن أَجْل لِبسِ الحِدادِ لِحَبِيبٍ أَردَوهُ لـــــي بالحِدادِ
رحِــمَ اللهُ مِــنْ يَــجودُ بِدمعٍ أو يَنُوحُ علـى قَتيــلِ الأعادِي
وَسَقــــتْه بِمثــــلِ جُودِ يَدَيهِ حيثُ أتى من البِــلادِ الغوادِي

فهي تصف حالتها بعد تهديدها بالقتل للبسها الحداد على محبوبها، وربّما كان المتوعّد السّيّد عثمان بن عبد المؤمن، وهي تترحّم على أبي جعفر وتدعو له، دون أن تظهر مشاعر الوله، ولعلّ السّبب في ضعف الرّثاء هنا يعود إلى الخوف من القتل كما فعلوا بتهديدها، لحزنها، لذا حبست مشاعرها خوفاً من ذلك.

وربّما كان السبب أيضًا أنّ المرأة تحزن حزنًا شديدًا لا تستطيع التعبير عنه مثل الرجل، وكما ترتاح المرأة بدموعها يرتاح الرجل بالحديث، لذا وجدنا تناول الرّجال لهذا الموضوع أكثر قوّة وتأثيرًا، لأنّه يترجم مشاعره تجاه المرثي إلى قصائد يظهر فيها التّفجّع والحزن، بينما تكتم المرأة في معظم الأحيان حزنها، و تدفنه بين ضلوعها، لذا فهي لا تستطيع أن تعبّرَ عمّا بصدرها من أحاسيس، لأنّ الكلام يظلّ لديها دون المشاعر، وهذا الأمر على العموم الأغلب، وهو فرضٌ وتعليلٌ قد يكون صحيحًا إلى حدٍّ ما، فقد ظهر من

٢٤() المغرب في حلى المغرب: ١٣٩/٢.

٢٥() الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣: ٢٢٠/١.

النّساء مَن كانت على عكس ما ذكرناه من اختزان مشاعر الفقد، وهي الخنساء التي تعدُّ نموذجًا لم يتكرّر مثله للمرأة في باب الرّثاء.

جـ ـ محاورُ أُخرى:

نعني بالمحاور الأخرى هنا هو ما نظّمته الشاعرات الأندلسيّات في معانٍ مختلفة متنوّعة، ولكنّنا لم نفرد كلًا منها بمبحث مستقلٍ، لأنّنا لم نجد في بعضها شعرًا كثيرًا، وفي بعض الأحيان لم تكن هذه المعاني تمثّل الأغراض الرئيسيّة أو الأساسيّة، بل كانت تقال تظرّفًا أو نصيحةً أو مدحًا أو تذكّرًا، لذا كانت أبيات تلك المحاورة متناثرة هنا وهناك، فارتأينا أن نضعها تحت مبحثٍ واحدٍ.

ومن هذه الأغراض وجدنا المدح النّبويّ الذي له مساحة ليست بالقليلة في دواوين بعض شعراء الأندلس، وهذا ليس بالغريب، فهو امتداد للشعر المشرقي ثقافةً وتوجّهًا وأغراضًا، فطرق شعراء الأندلس أغلب الأغراض الشّعريّة التي طرقها المشارقة، وشعر المدح النّبويّ حاله حال تلك الأغراض، إذ وجدناه بكثرة في أشعار ابن عربي وابن الصبّاغ و الششتري.

لقد طرقت الشّواعر الأندلسيّات المدح النّبويّ، لكن بنسبةٍ أقل بكثير عمّا هو عليه لدى الشّعراء الأندلسيين، وهذا يعود ربّما إلى التحرّر في طبيعة المجتمع الأندلسي كما ذكرنا سابقًا، ولقد وجدنا شعراً يُنسب إلى أمّ السّعد بنت عصام الحميري من تذييلها على قول أحدهم في صفة نعل رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)[٢٦]:

سَأَلتُم التِّمثَـــالَ إذ لم أَجِـــدْ لِلَثْمِ نَعلِ المصطفى من سبيلِ

فقالت أمّ السّعد أربعة أبيات، هي[٢٧]:

لعلّنِـــي أحظَـــى بِتقبِيـــلِهِ في جَنّةِ الفِردَوسِ أسنـــى مَقـيلِ
فِي ظِلِّ طُوبَى ساكِناً آمِـــنَاً أُسقى بأكـــوابٍ من السّلسبَيلِ
وأمسَـــحُ القَـلبَ بِـــهِ عَـلَّـــهُ يُسكّنُ ما جاشَ بِهِ من غَلِـــيلِ
فَطَالَمَا استشفَى بأطـــلالٍ مَنْ يهواهُ أهـــلُ الحـبِّ من كلّ جيلِ

فهي ترغب في لثم تمثال نعل رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) في الدنيا، لعلّها تلثم نعله (صلّى الله عليه وسلم) في الجنّة، وهو تعبير عن رغبة خالصة في تقبيل نعل رسول الله(صلّى الله عليه وسلّم)،

٢٦() الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، محمد بن محمد بن عبدالملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، ط ١، ١٩٧٣: ج ٨/ ق٢/٤٨٢.

٢٧() المصدر نفسه: ج٨/ق٢/٤٨٢.

وإكرام قدره يكون باتّباع سنّته والتّأسّي بأخلاقه، ويبدو أنّ هذا الشّعر لا يُعدّ وصفًا لشعور الزّاهد، وتفانيه في العبادة رغبةً ورهبةً أو حبًّا خالصًا، كما لا نجد فيه وصفًا لحالة الإيمان وشفافيتها في النّفس الإنسانيّة. ومما يتّصل بهذا الشّعرِ الشّعرُ الأخلاقي، ومنه ما نظّمته الشّاعرة أمّ العلاء بنت يوسف الحجازيّة البربريّة تصف مروءتها[٢٨]:

لولا مُنَافَـــــرَةُ الـــــــمُـدا مـــــةِ للصّبابةِ والغِـــنَا

لَعَكفتُ بيـــن كُؤُوســـــــــهِا وَجَمَعـتُ أَسبَـابَ الـمُـنَى

فهي تترك الخمر مروءةً وأنفةً لأثرها السيّء على تصرفات صاحبها، ولذلك هي لا تشربها.

ويدخل شعر النّصح أيضاً في هذا المضمار، تقول أمّ العلاء الحجازيّة لرجل أشيب عشقها[٢٩]:

يا صـبحُ لا تَبدُ إلـــى جُـــنحِ واللّـــيلُ لا يبقى مــع الصّبـحِ

الشّيـــبُ لايخـــدَعُ فـــيه الصّبَا بِجِـــيلَةٍ فاسمَعْ إلى نُصحِـي

فَلا تَكُنْ أجهَـــــلَ مَن في الورى تَبيتُ في الجَهْلِ كَما تُضْحِـــي

وهي نصيحة متوشّحة بعباءة الوقار والاحترام، لم تنزع فيها الشّاعرة الملتزمة إلى السّباب والشّتم كما فعلت عائشة بنت قادم القرطبيّة، التي خطبها من الشّعراء مَن لم ترضَ به، فكتبت إليه[٣٠]:

أنـــا لَبْـــوَةٌ لكنّنِي لا أرتَضِي بِرقّي مَناخًا طُولَ دَهــرِي مِنْ أَحدْ

و لو أنّني أختارُ ذلـــك لم أُجِبْ كَلبًا وَ كم غَلَّقتُ سَمْعِي عَن أَسَــدْ

فعائشة الثّريّة صاحبة الشّخصيّة القويّة، وابنة العائلة العريقة لم يكمن في لهجتها احترام لهذا الخاطب كما فعلت أمّ العلاء، بل وصفته بالكلب، ولم يكن ردّها نصحًا بقدر ما كان فخرًا وإباءً، فهي لا ترضى بأن تكون رقيقةً لأحد، لأنّ الزّواج يجعلها مقيّدةً برباط الزوجيّة ، وربّما كان هذا الرّجل أقلّ منها مكانةً اجتماعيّة، لذا وجدت في طلبه تجرؤً على منزلتها الرّفيعة، فخرجت عن وقارها وأظهرت امتهانها له بتعبيرٍ شديد الوقع.

٢٨() المغرب في حلى المغرب: ٣٨/٢.

٢٩() نزهة الجلساء في أشعار النساء، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبداللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، ط ١: ٢٧.

٣٠() المصدر نفسه: ٦٢.

٢ـ المظاهر المدنيّة والعلميّة

أ ـ وصف الطبيعة:

إنّ شعر الطّبيعة قديمٌ يمتد منذ العصر الجاهلي، فالعربيّ معجبٌ بأرضه وخيمته وصحرائه، يذكر فيها رحلته وتنقّله، وحروبه وأيّامه، لذا حظيت قصائد الشّاعر الجاهلي بأوصاف الصّحراء ونباتها في الرّبيع، والأطلال الدّارسة.

وإذا وصلنا إلى الشّعر الأندلسيّ وجدنا هذا الغرض عند شعرائه يزدهر بازدهار الطّبيعة والعمران، وقد أحبّ الأندلسيّ حياته و أحبّ طبيعة بلاده، بخضرتها و أزهارها ومياهها وأنهارها، فظهر افتتانه واضحًا في الأشعار التي تناول فيها جميع مظاهر الطّبيعة على نحوٍ حيٍّ متحرّكٍ يكاد ينبض بالوجود.

ولما كانت المرأة الأندلسيّة تعيش وسط هذه الطّبيعة الجميلة، فلابدّ إنّها أُغرِمَتْ بها غرامًا شديدًا، و أحبّت تصويرها، فحين ننظر إلى شعر حمدة بنت زياد المؤدّب في وصف الوادي، فسنجده وصفًا سلسًا رقيقًا، يعبّر بوضوح عن شفافيّة وشاعريّة، فهي تجد في وصفها ما توقّت به هجير الحرّ، وعبّرت عن هذا الهجير بلفحة الرّمضاء، وهو حرُّ الحجارة من شدّة الشّمس، فكان الوادي وقاءً من هذا الحرّ الشّديد[٣١]:

وَقانَا لَحفَةَ الرَّمضـــاءِ وَادٍ سَقَاهُ مُضَاعَفُ الغيثِ العَمـيـمِ
حَلَلْنَا دَوْحَهُ فَحَـــنَا عَلَـيْنَا حَنُوِّ المُرْضِعَاتِ عَلى الفَطِيـــمِ
وَأرشَفَنَا عَلـــى ظَـــمَأٍ زُلالًا ألـــــذَ من المُـــدامـــةِ للنّديمِ
يصدُّ الشّمسَ أنّى واجَـــهَتْنا فَيُحـــجِبُهـــا وَيَـــأذنُ للنَسيمِ
يَروعُ حصاهُ حاليةَ العَـذارى فَتلمسُ جانـبَ العقـدِ النّظيـمِ

فلنظافة هذا الحصى وتلألؤه نتيجة هطول الغيث، و وجوده جانب الماء تلمس العذارى صدورهنّ خشية أن يكون هذا الحصى حليهنّ قد وقع وانفرطت، وفي هذا الوصف نلمس صورة شعريّة رقيقة، تتجلى فيها المشاعر الأنثويّة حينما تصف التفاف الشّجر وتهدّل أغصانه، وتشبّهه بحنوّ الأم على وليدها، والتفاف ذراعيها حوله.

وكذلك يبرز في القصيدة التّعبير الأنثوي الرّقيق في صورة الحصى اللامع المتلألئ الذي يشبه حليّ المرأة، وإذا كنّا نلمس في شعر حمدة صورًا وتعابير أنثويّة، فإنّ تناول حفصة الرّكونيّة لشعر الطبيعة، نجد

٣١() نفح الطيب: ٤١٢/٦.

فيه مشاعر أنثويّة تزخر بإحساس الغيرة، وبإسباغ هذا الإحساس على الطّبيعة، فقد بات أبو جعفر مع حفصة في بستان بحوز مؤمل، وحينما حان وقت التفرّق قال أبو جعفر[٣٢]:

رعَى الله لَيــلاً لَــم يــرعَ بِمُذمّــــمِ عَشــيّةَ وارانـــا بحــوزٍ مُؤمَّــلِ
وَقَـــــد خَفَقَتْ مِن نـحوِ نَجْدٍ أَريـحَةٌ إذا نَفَـــحت جَاءَتْ بِريّــا القَرَنْـفُلِ
وَغرّدَ قَمـــــرِيٌّ عَلى الـدّوحِ وانثَنـى قَضِـيبٌ من الرّيحانِ من فوقِ جدوَبِ
يَرى الرّوْضَ مَسْرُوراً بِما قد بَـــدَا لَهُ عِـــــناقٌ وَضـــمٌّ وارتشافُ مُقبّلِ

فقد وجد أبو جعفر أنّ الرّوضَ مسرورٌ بهما، والقمر يُغرّد لهما، والرّوض يحتفل بوجودهما معًا، أمّا حفصة فقد قالت[٣٣]:

لَعَمرِكَ ما سُــرَّ الرّيــاضُ بِوصلِنا وَلـكنّه أبــدى لنا الغـــلَّ والحسـَد

فالمظاهر الطّبيعيّة التي وجدها أبو جعفر متفاعلةً بحبٍّ معهما، بينما وجدت حفصة تفاعلها حسدًا ونقمة، وكما كان الرّوض فكذلك النّهر، يتماوج غضبًا لوجودهما معًا، وكذلك حتى طائر القمري غرّد حزنًا وحسدًا[٣٤]:

و لا صـفّقَ النّـــهرُ ارتياحاً لقربِنَا و لا غــرّد القمـــريُّ إلّا لما وَجـــدْ

وهي لا تكتفي بوصف الروض والنهر، بل تقول[٣٥]:

فَما خـــلتُ هذا الأفْـــقَ أبدَى نُجُومَـهُ لِأَمـــرٍ سِوى كيـــما تَكونَ لَنا رَصَدْ

فحتى النجوم لم تظهر في الأفق إلّا لتكون حرسًا رقيبًا يرصد تحركاتهما، وهي أبيات تصف مشاعر الأنثى حيال هذا الرّوض، فأسبغت عليه من صفات البشر شعور الغيرة، مما أضفى على وصف مشاهد الطبيعة لديها حياةً جعلتها تعجُّ بالحركة والحيويّة.

أمّا الشّاعرة الثّالثة التي وصفت الطبيعة فهي أمُّ العلاء بنت يوسف الحجازيّة، فقد قالت تصف بستانًا لها[٣٦]:

لِلـــــهِ بُســـــــــتاني إذا يَهفـــو بِهِ القَصَبُ المُندّى

٣٢() معجم الأدباء، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٥٤: ٢/ ١١٨٣.

٣٣() معجم الأدباء: ١١٨٣/٢.

٣٤() المصدر نفسه: ٢/ ١١٨٣.

٣٥() المصدر نفسه: ٢/ ١١٨٣.

٣٦() المغرب في حلى المغرب: ٣٨/٢.

فَكَـــــــــــأنّما كَـــفُّ الرّيـا ح قَد أّسنَدتْ بنـــــداً فَبَندا

وهو وصف جامد لا حياة فيه، وربّما يعود ذلك إلى طبيعة وادي الحجارة المختلفة عن طبيعة غرناطة و وادي آش، فهي تصف بستان القصب الذي تملكه بأنّه نديّ، و كأنّه مرصوص كالأعلام من قبل الرياح، وهو وصف ضعيف الخيال، و لا حياة فيه أو حركة، كما لا يحتوي على تشبيهات رقيقة أو صور حيّة تضفي على الأبيات روحًا و إحساسًا.

وهذا ما وصلنا من بعض شعر النّساء في الطبيعة في الأندلس، و هو شعر يقلّ كثيرًا عن نظيره من شعر الرّجال، ويقصر عنه أيضًا في المعاني والصّور و الأخيلة والتّنويع، وفي رقّة الأسلوب ولطافته واحتفاظه بالحركة والحياة.

ب ـ الشّعر القصصي:

الشعر القصصي هو شعر يتناول فيه صاحبه حكاية أو حوارًا دار بينه وبين غيره، وقد وجدنا ذلك قديماً في شعر عمر بن ربيعة، أمّا أمثاله عند النّساء الأندلسيّات فقد وجدنا أحد عشر بيتًا بعثت بها الأميرة بثينة بنت المعتمد بن عباد إلى والدها وهو في سجن أغمات، فقد سُبيت الأميرة بعد استيلاء المرابطين على إشبيلية، وبيعت بيع العبيد حتى اشتراها رجل من تجار مدينتها الذي أهداها بدوره إلى أبنه، ولكن الأميرة أخبرته بقصّتها، و أبت إلّا أن يكون ما بينهما زواجًا، بعد أن تشاور والدها، فهي قصّة حدثت لأميرة ابنة ملك، سُبيتْ وبيعت بيع الجواري، ولكنّا كانت محظوظة لوقوعها بيد تاجر كريم، و قد صاغتها أبياتٍ شعريّةً ، فقالت[٣٧]:

اسْـــــــمعْ كَلَامِي واستمـــــعْ لِمَقالَتي فَهـــي السّلُوكُ بَدَتْ مِـــن الأجيادِ
لا تُنـــكِرُوا أنّـــــي سُبيـــــتُ وَ أنّنِي بِنـــتٌ لِمَلِكٍ مِـــن بَنِـــي عَبّـــادِ
مَلِـــكٌ عَظِـــيمٌ قد تَـــــولّى عَصرُهُ وَكَـــــذا الزَّمـــــانُ يَؤولُ للإفسـادِ
لمّا أَرادَ اللهُ فِـــــــــرقَةَ شَمْـــلِنا وأّذاقَنَـــــا طَعـــــــمَ الأسى مِن زادِ
قامَ النّفَـــاقُ على أبِـــــــي في مُلْكِـهِ فَـــدَنا الفِـــــراقُ وَ لم يكُن بِمُـــرادِ
فَخَرَجـــتُ هارِبَةً فَحـــــــازَنِي امرؤٌ لَم يـأتِ فِـــــــي إعجـــالِه بِسـُدادِ
إذ باعَنِـــي بيعَ العَبـــــــيـدِ فَضمَّنِـي مَـــــن صانَنِـــــي إلّا مِـن الأَنكـاد
و أَرانِـــــي لـــــــــنِكاحِ نَجلٍ طاهِرٍ حَسِنُ الخَـــــلائقِ مِـــن بَني الأَنجـادِ
وَ مَضى إليكَ يَسُومُ رَأْيكَ فـــــي الرِّضا و لأَنتَ تَنْظُـــــــرُ في طَرِيقِ رَشـــادِ

٣٧() نفح الطيب: ٤/٢٨٤.

فَعَســـــاكَ يا أَبَتِي تُعرِّفَنِـــــــــــي بِـــــــهِ إن كـــانَ مِمّن يَرتَجِـــي لِوِدَادِ
وَعســـــــــــى رُميكيّة الملوكِ بِفَضلِهَا تَدعـــــو لَنا بِاليُـــــــمنِ وَ الإسعادِ

فلمّا وصل شعرها لأبيها و هو بأغمات وافق على زواجها، بعدما عرف أنّ زوجها من بني نجاد، و هم عائلة عربيّة عريقة من أهل إشبيلية، فوافق على الزواج، و أوصاها خيرًا فقال(٣٨):

بُنيَّتِـــــي كُـــــــــوْنِي بِهِ بَرَّةً فَقَدْ قَـــضَى الدَّهْـــــــــرُ إسْعَافَهُ

و قصيدة بثينة حكاية تحوي بدايةً وحبكةً ونهايةً، صِيغت شعرًا بطريقة واقعيّة بعيدة عن الخيال القصصي، فجاءت مُعبّرةً عن حالة الأميرة مُؤدّية غرضها.

جـ ـ الخـــــــطّ:

دخل فن الخط إلى الأندلس عن طريق النقود، فقد تطلب تنظيم الدولة والسياسة واقتصاد المملكة وجود عملة موحدة للتداول، فالحروف الكوفية الجميلة تبدو أنيقة ومحكمة ومتّسقة مع بعضها، كما يتميز نقشها الشفاف بنظام متناغم من الزوايا، واستقى الأندلسيون الخط من الشرق، فاستخدموا الخط العربي في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية غرناطة ٨٩٧ هـ.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو إنّ الأندلسيين يختلفون في ترتيب الحروف عن المشارقة، فهم يُؤخرون السين والشين والصاد والضاد واللام، ويقدمون الكاف والميم والنون، كما يختلفون في إعجام الفاء والقاف، فهم ينقطون الفاء بنقطة من أسفلها، والقاف بواحدة من أعلاها(٣٩).

ويبدو من خلال الاطّلاع على دواوين الشّواعر الأندلسيّات وجدنا أنّ فن الخط قد حظِيَ بعناية الأندلسيين، لدرجة أنّه كان موضع هجاءٍ إذا ساء و موضع إعجاب إذا حسن، إذ وجدنا أشعارًا تمتدح حسن الخط وتفتخر فيه، تقول صفيّة بنت عبدالله الريّـي في ذلك(٤٠):

وَ عائبةٌ خـــطّي فقلتُ لَها: أقصِرِي فسوف أُرِيكِ الدُرَّ فِي نَظمِ أَسْـطُـرِي
وَ نادَيتُ كَفِّـــي كي تَجُودَ بِخَطِّها وَقرّبتُ أَقلامِـــــــــي وَرَقِي وَمحبَرِي
فَخَـــــــطَّتْ بِأبياتٍ ثلاثٍ نَظَمتْها لِيبدوَ لَها خَطّي، وَقُلتُ لَها: انظُـــرِي

أمّا حفصة الركونية فها هي تستوقفها فتاة من الأُسَر العريقة في الأندلس، فتطلب منها أن تكتب

٣٨() نفح الطّيب: ٤/ ٢٨٤.

٣٩() ينظر: الحضارة العربية و الإسلامية في الأندلس، سلمى خضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٨: ٢/ ٩٠٧.

٤٠() نفح الطيب: ٢/١٠٧.

لها شيئًا بخطها، فخطّت لها هذين البيتين[٤١]:

يا رَبّـــةَ الحُســـنِ يا رَبّةَ الكَـــرَمِ غضّي جُفونَكِ عمّا خَـــطّه قَلَمِي

تَصَفّحِـــــيهِ بِلَحظِ الـــودِّ مُنـــعّمَةً لا تحفلـــــي بِرديء الخَــطِّ والكَلَمِ

فهذه الأبيات دليل على عناية الأندلسيين بالخط، وبكل شيء جميل يتماشى مع بيئة الأندلس الجميلة بطبيعتها وأناسها.

خاتمة البحث

بعد هذه الرّحلة يخرج البحث بجملة نتائج، منها:

- كان لاختلاف أجناس المجتمع الأندلسي دور كبير في صهر ثقافات متعدّدة داخل المجتمع الواحد، فالحياة الثّقافيّة فيه هي حصيلة طيّبة من العلوم و الفنون التي تعود إلى المجتمعات المختلفة.
- للمرأة بشكل عام دور فاعل في الحياة الاجتماعيّة بمختلف فعالياتها، و للمرأة الأندلسيّة بشكل خاص دور بارز تفوقت فيه في مشاركتها الفاعلة في مختلف ميادين الحياة الاجتماعيّة، و هذا سببه الحريّة التي تمتّعت بها المرأة في الأندلس.
- تمثّل شعر الحب عند الشّواعر الأندلسيّات بجانبين، الأول روحي و الثّاني مادّي، الرّوحي تمثّل بالحب الإلهي وسموّ الرّوح، و الثّاني تمثّل بحاجة النّفس إلى عاطفة الحب و الأنس بقرب الحبيب، الذي جاء مُصرّحًا به حينًا، و مقنّعًا تحت الخمرة حينًا آخر.
- لقد طرقت الشاعرة الأندلسيّة موضوع الموت في حالين حزينة و راثية، و أظهرت براعة في ترجمة أحاسيسها تجاه الفقيد بشكل نصوص شعريّة معبّرة.
- المدح النّبوي كان له نصيب في شعر الأندلسيّات، و على الرغم من قلّته إلّا إنّه جاء بصور موحية تناسبت مع غرضها الذي وُضعتْ من أجله.
- تمثّلت القصّة شعرًا بصورة جليّة في أشعار الأندلسيّات، و جاء متضمّنًا أركانها جميعًا، من بداية حدث و حبكة و نهاية.
- و للخط اهتمام من قبل شاعرات الأندلس، إذ كان موضع هجاء إذا ساء، و موضع إعجاب إذا حسُن، و ظهر ذلك جليًّا في أشعارهن.

٤١() بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن عميرة الضّبي، تحقيق: إبراهيم الإيباري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩: ١/ ٥٢٣.

ثبت المصادر والمراجع

ـ الكتب

١. الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣.

٢. الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٧٩.

٣. إسهام المرأة في حضارة المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع للهجرة، نبيلة عبدالشكور، جامعة الجزائر، ط٢، ٢٠٠٨.

٤. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن عميرة الضّبي، تحقيق: إبراهيم الإيباري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩: ١/ ٥٢٣.

٥. الحضارة العربية و الإسلامية في الأندلس، سلمى خضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

٦. ديوان الموشحات الأندلسية، تحقيق: السيد غازي، منشاة معارف الإسكندرية، مصر، د.ط، ١٩٧٩.

٧. الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، محمد بن محمد بن عبدالملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، ط ١، ١٩٧٣.

٨. الشعر النسوي الأندلسي، سعيد بوفلاقة، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية ـ الجزائر، ط١ ، ١٩٩٥.

٩. العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده، أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.

١٠. الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط ٩.

١١. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين، أبو عبدالله محمد بن أيوب بن قيم الجوزية، تحقيق: رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ٢٠٠١.

١٢. المظاهر الثقافية في الشعر الأندلسي حقبة الأندلس الصّغرى، إيفان فهمي حميد مجيد، دار الابتكار للنشر و التوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠٢٠.

١٣. معجم الأدباء، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٥٤.

١٤. المغرب في حلى المغرب، علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٣.
١٥. ملامح الشعر الأندلسي، عمر الدقاق، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، كلية الآداب، ط٣، ١٩٧٨.
١٦. نزهة الجلساء في أشعار النساء، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبداللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، ط ١.
١٧. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١.
١٨. الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس، إبراهيم توفيق، دار غيداء للطباعة والنشر، عمّان ــ الأردن، ط١،٢٠١٢.

ـ البحوث المنشورة في الدوريات و المجلات:

١. الأدب النسوي بين الرفض و التأييد و بداياته في الوطن العربي، سوسن أبرادشة، مجلة إحالات، العدد ٣، ٢٠١٩.